وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية لكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
" ١ "

الجوهرة المؤملة

محمود درويش



عادل محمود

محمود درويش

الجوهرة المؤلمة

عـادل محمود

محمود درويش

الجوهرة المؤلمة

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١

محمود درويش الجوهرة المؤلمة / عادل محمود .-
دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١ .- ١٠٤
ص؛ ٢٠ سم .-

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١)

١- ٩٢٨: درويش ، محمود م ٢- العنوان
٣- محمود ٤- السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«١»



مسودة بخط الشاعر

« كان لا يحب أن يرى أحد مسوداته إلا الناشر،
بعد أن تكون النسخة معدة للطباعة »

إذا أردت أن تكتب سطراً واحداً.....

يجب أن تكون زرتَ مدناً كثيرةً، ورأيتَ أشياءً كثيرةً، وقطفتَ زهوراً كثيرة ....

الشاعر الألماني

ريلكه

مقدمة

الشاعر محمود درويش قصة طويلة. قصة شخص، وشاعر، ووطن ...

بل وعصر عربي فلسطيني، مأساوي وحزين.

ولذلك هناك، كأية قصة، تفاصيل كثيرة، وآراء، وسيرة لآلاف الأشخاص، من القادة الذي عرفهم درويش إلى الشهداء الذين أحزنه رحيلهم، إلى الأماكن التي عاش فيها كمنفي فلسطيني أخذ الإسرائيليون أرضه ووطنه.

إنها أيضاً قصة شاعرٍ شاهدٍ في وسط النار والغبار والمدافع، شاهد على حروب وحصارات وموت جماعي... كان في كل ذلك الشاعر الذي يؤلّفُ قصائده من موادَّ مؤلمةٍ، ليس له فقط، ولشعبه، وإنما للضمير الإنساني حيث توجد في مكوناته كما يفترض، عدالةُ ورحمةُ وتضامنُ الإنسان مع المحن الكبرى لإنسانٍ ولشعبْ.

ومحمود درويش عرفه الجمهور العربي منذ البدايات، في أواسط الستينيات من القرن الماضي، شاعِرَ مقاومة. إذ لم يكن بوسع الفلسطيني تحت الاحتلال أن يختار خياراً آخر سوى المقاومة بكل أشكالها. و قد كان درويش أحد أهم شعراء تلك المرحلة في إيقاظ الحس الوطني بالهوية الفلسطينية.

صعوبة الكتابة، في سيرته، آتيةٌ من كونها حديثٌ عن نصف قرنٍ من تجربة شاعر، عاش ومات في مسيرةِ أصعبِ كفاحٍ لشعبٍ، وعاش و مات وهو يؤرخ للحزن الفلسطيني، وللأمل الفلسطيني...

الحزن القائم والمستمر، والأمل الذي لا علامةَ كُبْرى على أنه آتٍ في القريب العاجل.

لقد مات محمود وهو يحلم بانتصارات شعبه،

مات وهو يكرّرُ، على مسمع العالم،أسطورة صمودِ هذا الشعب.

مات وهو يعرف أنه ذاهب إلى الموت، في صمتِ تلك الشجاعةِ التي عُرِفَ بها على درب الآلام، وفي أقصى لحظات الموت على الأبواب.

إن محمود درويش نموذجٌ للشاعر الذي لم يتخلَّ في لحظةٍ واحدةٍ عن النشيد، والشاعر الذي لم يتوقف عن النمّو، في قصيدةٍ تلوَ قصيدةٍ و كتابٍ بعد كتابْ.

ذلك لأنه آمن واجتهدَ في المزج بين عدالة الكفاح الإنساني وجمال صورة هذا الكفاح في القصيدة الحديثة.

إن أثره في القصيدة العربية سيبقى دائماً، مثالاً للشعراء الذين يبدؤون، وإنْ أرادوا الاستمرار صعوداً... عليهم أن يرتفعوا بقامات الكلمات إلى مستوى الأشجار التي خلفَّ لنا في آلاف الصفحات.

محمود درويش ذاكرة جمالية لشعب، وأجيال، وعصر... غير قابل للنسيان.

❖ ❖ ❖

تواريخ وأمكنة

- ولد في العام ١٩٤١ في قرية البروة التي تبعد حوالي ٩ كم عن عكا.
- خلال حرب ١٩٤٨ انتقل مع عائلته إلى لبنان، ليعود متسلّلاً و يجد إن قريته البروة لم تعد موجودة على الخريطة فيعيش لاجئاً في دير الأسد في الشمال الفلسطيني.
- عاش في حيفا عشر سنين وفيها أنهى دراسته الثانوية. ثم عمل محرراً في جريدة (الاتحاد). وبقي فيها تحت الإقامة الجبرية. ومن العام ١٩٦٧ لغاية العام ١٩٧٠ كان ممنوعاً من مغادرة منزله.
- دخل عالم الصحافة باكراً، في العشرين من عمره.
- كان رئيس تحرير مجلة (الجديد) ومحرراً في جريدة (الاتحاد) وكتب افتتاحيات ومقالات سياسية.

❖ في أواخر الستينيات من القرن العشرين عرَّف به الأديب غسان كنفاني كواحد من أدباء المقاومة في فلسطين ضمن كتاب ضم إلى جانبه سميح القاسم وتوفيق زياد وسواهما.

❖ أثناء ذلك نشر دواوينه (أوراق الزيتون) و(عاشق من فلسطين) و(العصافير تموت في الجليل).

❖ أول رحلة له خارج فلسطين كانت إلى موسكو. وكان حينها طالباً في معهد العلوم الاجتماعية.

❖ ومنها غادر إلى القاهرة التي بقي فيها عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ .

❖ في القاهرة عيّنه محمد حسنين هيكل في نادي كتاب (الأهرام) إلى جانب توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وبنت الشاطئ. وفيها تعرّف على من كان يعتبرهم آباءه الشعريين كصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي.

❖ انتقل بعدها إلى بيروت التي أمضى فيها نحو اثنتي عشرة سنة حتى العام ١٩٨٢ ، تاريخ الاجتياح الإسرائيلي للبنان.

❖ في بيروت كان من أسرة تحرير مجلة (مواقف) في إحدى مراحلها ، إلى أن تسلم رئاسة تحرير مجلة (شؤون فلسطينية). وفي العام ١٩٨١ أصدر مجلة (الكرمل).

❖ بعد بيروت سيعيش بشكل متقطع لعشر سنوات في باريس التي يعتبرها مكان ولادته الشعرية الحقيقية، ففيها كتب دواوينه (ورد أقل)، و(هي أغنية)، (أحد عشر كوكباً)، (أرى ما أريد)، (لماذا تركت الحصان وحيداً)، وبعض قصائد (سرير الغريبة).

❖ في العام ١٩٨٨ انتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي بقي عضواً فيها إلى أن جرى توقيع اتفاق - أوسلو - للمفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٩٣.

❖ عاد من باريس، واختار الإقامة في رام الله فلسطين ومنها أعاد إصدار مجلة، (الكرمل).

❖ رحل درويش في ٩ آب ٢٠٠٨ و دفن في رام الله، الضفة الغربية.

❖ بعد وفاته أصدر ورثته عن دار الريس قصائده المتروكة بعنوان "لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي".

❖ ❖ ❖

طفولة الخوف الأول

"البروة" اسم قرية محمود درويش، تقع شرق عكا في فلسطين. ويعتقد أنها قرية بناها الرومان.

ولكن من المؤكد أن الإسرائيليين هم من هدّمها وأزالها من الوجود عام ١٩٤٨، عام احتلال فلسطين.

ومن الغريب أن يعود الإسرائيليون إلى العبث بهذه القرية مؤخَّراً في ٢٠٠٨ حيث نبشوا القبور وبعثروا الموتى ليبنوا هناك مساكن، وحديقة حيوان.

في ليل من ليالي الصيف عام ١٩٤٨ هجم اليهود على القرية، فأيقظ أهل محمود درويش أولادهم الصغار ليحملونهم خارج الرصاص، ذلك الخوف الذي جرّبه الأطفال لأول مرّة: الذعر!

وسأترك محمود يتكلم عن تلك الليلة:

" أذكر نفسي ، عندما كان عمري ست سنوات. كنت من قرية جميلة وهادئة ، هي البروة تقع على هضبة خضراء ينبسط أمامها سهل عكا. وكنت ابناً لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة.

عندما كنت في السابعة توقفت ألعاب الطفولة. وإني أذكر كيف حدث ذلك تماماً : في إحدى ليالي الصيف ، التي اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل، أيقظتني أمي من نومي فجأة ، فوجدت نفسي ، مع مئات من سكان القرية أعدو في الغابة. كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ، ولم أفهم شيئاً مما يجري. بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت ، مع أحد أقربائي الضائعين في كل الجهات إلى قرية ذات أطفال آخرين. تساءلت بسذاجة : أين أنا؟ وسمعت لأول مرة كلمة " لبنان ".

تلك الليلة وضعت حداً لطفولتي. الطفولة الخالية من المتاعب انتهتْ. وأحسستُ فجأةً أنني أنتمي إلى عالم الكبار. منذ تلك الأيام التي عشتُ فيها في لبنان لم أنْسَ ، ولن أنسى إلى الأبد ، تعرّفي كلمة : " وطن " فلأول مرة ، وبدون استعداد سابق ، كنتُ أقفُ في طابورٍ طويلٍ لأحصل على الغذاء الذي توزعهُ " وكالةُ إغاثةِ اللاجئين الفلسطينيين "

كانت الوجبةُ الرئيسية هي الجبنة الصفراء. وهنا استمعت إلى كلماتٍ جديدةٍ فَتَحتْ أمامي نافذةً إلى عالم جديد. الوطن. الحرب. الأخبار. اللاجئون. الجيش. الحدود. وبواسطة هذه الكلمات بدأت أدرس وأفهم وأتعرف على عالم جديد. على وضع جديد ... حرمني طفولتي".

بعد سنة قضاها مع أهله في لبنان، حاولوا العودة إلى فلسطين، إلى البروة التي لم يكونوا على علم بمصيرها:

".. خرجت إلى رحلة العودة. كان الظلام مخيماً على كل شيء.

وكنا ثلاثة أنا وعمي والدليل الذي يعرف مجاهل الدروب في الجبال والوديان. إني أذكر الزحف على البطون لكي لا يرانا أحد. وبعد رحلة مضنية وجدت نفسي في إحدى القرى، ولكن ما أشدَّ خيبة أملي:

لقد وصلنا إلى قرية " دير الأسد " وهي ليست قريتي. لا بيتي هنا ولا رفاقي.

سألت: متى نعود إلى قريتنا، إلى بيتنا. و لم تكن الأجوبة مقنعة ولم أفهم شيئاً. لم أفهم معنى أن تكون القرية مهدّمة.

لم أفهم أن يكون عالمي الخاص قد انتهى إلى غير رجعة. ولم أفهم لماذا هدموا هذا العالم. ومن هم أولئك الذين هدموه؟

عرفت لاحقاً أنني لاجئ في بلادي. لقد خَبِرْتُ اللجوءَ في " المنفى " وأنا طفل، وخَبِرْتُه وأنا لاجئ في " الوطن ".

عندما عدت من لبنان إلى قرية دير الأسد كنت في الصف الثاني. كان مدير المدرسة إنسانا طيباً. فعندما يزور المدرسة مفتش وزارة المعارف كان المدير يستدعيني ويخبّئني في غرفةٍ ضيقةٍ لأن السلطات تعتبرني متسلّلاً. لقد أُضيفتْ إلى قاموسي كلمة جديدة " متسلّل " وهي الكلمة التي تصف الفارّين من الهجمات الإسرائيلية، إلى البلدان المجاورة، عندما يعودون.

❖ ❖ ❖

موهبة وعثرات

كان التلميذ محمود درويش متفوقاً لكثرة شغفه بمطالعة الأدب. و لكن موهبة أخرى أطلت برأسها و هي الرسم. ويقول محمود: "ربما في ظروف مواتية كنت سأصبح رساماً". لقد توقف عن الرسم لأن والده، العامل في قطع الأحجار في المقالع، لم يكن قادراً على شراء ما يحتاجه من أدوات الرسم. وعن ذلك يقول: "حاولت التعويض عن الرسم بكتابة الشعر التي لا تتطلب ممارستها نفقات مالية".

كانت المواضيع الأولى هي مشاعر الطفولة. شجع المعلمون موهبة التلميذ وقاموا بتوجيهه ومساعدته: "مازلت حتى اليوم مديناً لبعضهم ومن بينهم المعلم نمر مرقس. الذي وجّه خطواتي الأولى في الشعر".

منذ البداية بدأت متاعب الشعر. ففي الصف الثامن، عندما جرى الاحتفال بإقامة دولة إسرائيل، ونظموا

مهرجانات كبيرة، في القرى العربية، باشتراك تلامذة المدارس، "طلب مني مدير المدرسة أن اشترك في مهرجان قرية دير الأسد. وقفت أمام الميكرفون بالبنطلون القصير، وقرأت قصيدة كانت صرخة من طفل عربي إلى طفل يهودي".

في اليوم التالي اسْتُدعِيَ درويش الطفل إلى مكتب الحاكم العسكري الذي هدّده وشتمه: "عندما خرجت من مكتبه بكيت بمرارة لأن تهديده كان: إذا مضيتَ في كتابةِ مثل هذهِ الأشعار فلن نسمح لأبيك بالعمل في المحجر".

الاحتلال يملأ حياة المحتل بمفارقات دائمة، مما يؤسس لآلام التناقضات التي لا شفاء منها، الأمر الذي يدفع المشاعر الإنسانية المؤلمة إلى تطرفها في الحدِّ الأقصى ...

ذات يوم، مثلاً: احتفلت إسرائيل بمرور عشرين سنة على إنشاء كيبوتز "يسعور" (مزرعة تعاونية) ومستوطنة "أحيهود" تماماً على أنقاض قرية الشاعر "البروة". الاحتفال وأعراسه لدى يهود المزرعة والمستوطنة، هما مأتم طفولة ومكان طفولة لدى أهالي القرية، فكيف تكونُ الفرجةُ على هاتين الضفتين؟

ومثلاً :

حاول محمود زيارة القرية ... لكنهم حذروه من الاعتقال. فزارها سراً عام ١٩٦٣. "لم يبق من القرية إلا مبنى الكنيسة الذي تحوّل إلى حظيرة للمواشي".

شاعرُ ما يكتبُ الآن قصيدهْ

بدلاً مني،

على صفصافةِ الريح البعيدةْ

فلماذا تلبسُ الوردةُ في الحائطِ

أوراقاً جديدةْ؟

حيفا : الصحافة والشعر

انتقل محمود درويش إلى حيفا عام ١٩٦٠ بعد إتمام دراسته الثانوية، وكانت العائلة قد استقرت في قرية "الجديدة".

عمل في جريدة "الاتحاد" ومجلة "الجديد"، صحيفتا الحزب الشيوعي. وكان يعيش على الكفاف من عمله الصحفي. وقد تعرض للاعتقال عدة مرات: كانت الأولى عام ١٩٦١، والثانية عام ١٩٦٥ إثر إلقاء قصيدة "نشيد الرجال" في الجامعة العبرية، ومنها:

سنَصنَعُ من مَشَانِقِنا

ومن صُلبان حاضرِنا وماضينا

سَلالِمَ للغدِ الموعودْ.

ثم نصيح يا رضوانُ:

افتحْ بابَكَ الموصودْ.

كما تعرض ثلاث سنوات للإقامة الجبرية، التي تعني المنع من مغادرة البيت بعد غروب الشمس. على أن يثبت وجوده، كل يوم الساعة الرابعة، في مركز الشرطة.

لقد تقاسمنا اليوم: لهم الليل و النهار لي.

قبل حرب حزيران ١٩٦٧ صدرت الأوامر العسكرية باعتقال كافة المثقفين والشعراء. و كان الاعتقال الخامس عام ١٩٦٩.

أول ديوان مطبوع لمحمود درويش وكان عمره ١٨ سنة هو " عصافير بلا أجنحة " والديوان الثاني، " أوراق الزيتون " صدر عام ١٩٦٤. وكانت السمة الغالبة على شعره الغضب والتحدي. وفي الديوان بيئةُ الريف وآلامُ الناس والتغنّي بالأرض والوطن ورفض الواقع:

... يا داميَ القدمينِ والعينينِ
إنَّ الليلَ زائلْ
لا غرفةُ التوقيفِ باقيةٌ
ولا زردُ السلاسلْ
فحبوبُ سُنْبلةٍ تجفُّ
ستملأُ الوادي .. سنابلْ .

عام ١٩٦٨ أصدر ديوانه الأشهر الذي تعرف إليه القارئ العربي خارج فلسطين "آخر الليل" والذي اعتِبُرَ ديوانَ الشعرِ المقاومْ، بعد هزيمة ١٩٦٧. ولقد سأله الأديب محمد دكروب عام ١٩٦٨ في مقابلة مطولة عن كل شيء، وهنا نسجل فقط رده على سؤال: "أي دور تطمح أن تؤديه في الشعر، وبواسطة الشعر"؟

جواب: "أن أنقل قضية شعبي، بكل أبعادها، إلى الصفحات التي تستحقها في ديوان الشعر الإنساني. فهذه القضية حلقة من صراع الإنسان المسحوق ليأخذ دوره الذي يستحق في الحياة وفي نشاط البشرية.

ومهما يكن حجم الآلة التي أعزف عليها صغيراً .. فإن لها مكانها في النشيد الإنساني الشامل.

إن أصوات الشعراء القادمة من أنحاء العالم مجتمعة، هي التي تؤلف هذا النشيد. وتمسكي بهذه الآلة الفلسطينية لا يتنافى مع وعيي لشموليةِ الكفاحِ الإنساني ومجموعةِ الأشجار التي تصنع الغابة".

❖ ❖ ❖

المنفى الاختياري

يمكننا اعتبار المرحلة التي بدأت بخروجه من فلسطين المحتلة عام ١٩٧١ هي المرحلة/الرحلة إلى تعدّد المنافي، وتعدّد الخيارات، وتعدّد المصائر. سواء فيما يتعلق بدرويش نفسه أو بقضية شعبه.

ذهب إلى "موسكو" وبقي هناك عاماً واحداً ١٩٧١-١٩٧٢ طالباً في" معهد العلوم الاجتماعية ".

" كانت موسكو أول لقاء لي بالعالم الخارجي. حاولت السفر قبلاً إلى باريس لكن السلطات الفرنسية رفضت دخولي إلى أراضيها. كان هذا في العام ١٩٦٨. كان لدي وثيقة إسرائيلية لكنَ الجنسية غير محدّدة فيها. الأمن الفرنسي لم يكن مطلوباً منه أن يفهم تعقيدات القضية الفلسطينية."

كانت أول مدينة أوربية وأول مدينة كبيرة أعيش فيها. طبعاً اكتشفت معالمها الضخمة ونهرها ومتاحفها

ومسارحها... تصور ما يكون رد فعل طالب فتيّ يتنقل من إقامة محاصرة إلى عاصمة ضخمة؟

تعلمت الروسية قليلاً لأدبر الأمور الشخصية. لكن اصطدامي بمشكلات الروس يومياً جعل فكرة " فردوس" الفقراء التي هي موسكو، تتبخر من ذهني وتتضاءل. لم أجدها أبداً جنة الفقراء، كما يعلموننا.

جاء درويش إلى مصر بعد أن قضى سنة في موسكو وهناك استقبله الصحافي الشهير محمد حسنين هيكل ورتّب له مكتباً إلى جوار كبار كتاب الأهرام تلك الأيام، توفيق الحكيم، يوسف إدريس، رجاء النقاش، نجيب محفوظ.

يصف درويش تلك المرحلة:

"الدخول إلى القاهرة كان من أهم الأحداث في حياتي الشخصية. في القاهرة ترسخ قرار خروجي من فلسطين وعدم عودتي إليها. ولم يكن هذا القرار سهلاً. كنت أصحو من النوم وكأنني غير متأكد من مكان وجودي. افتح الشباك وعندما أرى النيل أتأكد من أنني في القاهرة. خامرتني هواجس ووساوس كثيرة، لكنني فتنت بكوني في مدينة عربية، أسماء شوارعها عربية والناس فيها يتكلمون بالعربية."

" من سوء حظي أنني لم ألتقِ طه حسين، كان في وسعي أن ألتقي به، ولم يحصل اللقاء. وكذلك أم كلثوم لم ألتق بها. وحسرتي الكبرى إنني لم ألتق هذه المطربة الكبيرة. كنت أقول إنني مادمت في القاهرة فلدي متسع من الوقت لألتقي مثل هذه الشخصيات. التقيت محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ وسواهما والتقيت كبار الكتّاب مثل نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم".

"عيّنني محمد حسنين هيكل مشكوراً في نادي كتّاب "الأهرام" وكان مكتبي في الطابق السادس، وهناك كان مكتب توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وبنت الشاطئ. وكان توفيق الحكيم في مكتب فردي ونحن البقية في مكتب واحد. وعقدت صداقة عميقة مع محفوظ وإدريس، الشخصيتين المتناقضتين: محفوظ شخص دقيق في مواعيده، ومنضبط يأتي في ساعة محدّدة ويذهب في ساعة محدّدة. و كنت عندما أسأله: هل تريد فنجان قهوة أستاذ نجيب؟ كان ينظر إلى ساعته قبل أن يجيب. ليعرف إن كان حان وقت القهوة أم لا ؟

أما يوسف إدريس فكان يعيش حياة فوضوية وبوهيمية، وكان رجلا مشرقاً. وفي القاهرة صادقت أيضاً الشعراء الذين

أحبهم: صلاح عبد الصبور وأحمد حجازي وأمل دنقل. كان هؤلاء من الأصدقاء القريبين جداً "

لم تطل إقامته في مصر إذ كانت بيروت هي الإغراء الأكبر، بما كانت عليه في تلك الأيام، من حرية، ولوجود العدد الكبير من مهاجري ومهجّري الشعب الفلسطيني بعد أحداث أيلول ١٩٧٠- ١٩٧١ في عمان والتي أدّت إلى الخروج الفلسطيني الثاني إلى المنفى.

فترة بيروت أهم فترة لعبت دوراً في تطوّر تجربة محمود الشعرية. وبيروت تلك الأيام عاصمةُ حريّةٍ كان يجد فيها كلُّ المثقفين العرب، المطرودين أو المطلوبين من سلطات بلادهم، ملاذاً آمناً ومكاناً للعمل والإبداع والنشر.

" بعد القاهرة انتقلت إلى بيروت مباشرة. وأمضيت فيها نحو اثنتي عشرة سنة إلى حين الخروج. عشت فيها من العام ١٩٧٠ إلى العام ١٩٨٢. حنيني إلى بيروت ما زلت أحمله حتى الآن. وعندي مرض جميل اسمه الحنين الدائم إلى بيروت. ولا أعرف ما هي أسبابه. وأعرف إن اللبنانيين لا يحبون مديح مدينتهم في هذا الشكل. لكن لبيروت في قلبي مكانة خاصة جداً. ولسوء حظي أنني بعد سنوات قليلة من

سكني في بيروت، وهي كانت ورشة أفكار ومختبراً لتيارات أدبية وفكرية وسياسية، متصارعة ومتعايشة في وقت واحد، لسوء حظي أن الحرب اندلعت. وأعتقد أن عملي الشعري تعثر حينذاك.

أعتقد أن أجمل ما كتبتُ ديوان " تلك صورتها وهذا انتحار العاشق " ولكن بعد اندلاع الحرب صار الدم والقصف والموت والكراهية والقتل... كل هذه صارت تهيمن على أفق بيروت وتعكره. وبعض أصدقائي هناك ماتوا عليّ أن أرثيهم. وأول من فقدت هناك غسان كنفاني. وأعتقد إن الحرب الأهلية في لبنان عطلت الكثير من المشاريع الثقافية والفكرية التي كانت تجتاح بيروت. وانتقل الناس على جبهات مختلفة ومتناقضة ومتحاربة".

في السنوات التي عاشها هناك أسس مجلة" شؤون فلسطينية" وكان رئيسَ تحريرَها لسنوات. ثم، في عام ١٩٨١ أصدر العدد الأول من مجلة "الكرمل" وهي مجلة الثقافة والأدب العربي والفلسطيني. ثم بعد الاجتياح الإسرائيلي انتقل بالمجلة إلى قبرص، ثم لاحقاً، بعد العودة إلى الضفة الغربية، أصدرها من رام الله، ثم توقفت في العام ٢٠٠٧ . وبعد وفاة

درويش صدر العدد ٢٠٠٩/٩٠ عدد مخصص له وحده. ويستطيع أي مُقْتَنٍ لأعدادها أن يفاخر بمكتبة غنيّة في بيته.

نشبت الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٦ ، وأدت إلى تدمير استقرار هذا البلد لمدة طويلة. وفي مناخ الحرب التي لم توفّر مكاناً أو شارعاً، في كل أوقات الليل أو النهار، ...اضطر محمود للهجرة إلى باريس حيث أقام لبضع سنوات، ثم عاد إلى بيروت، مرة أخرى، ليكون بانتظاره هذه المرة الاجتياح الإسرائيلي لبيروت واحتلال أول عاصمة عربية في العام ١٩٨٢.

تجلّى الحقد الإسرائيلي في القسوة التي تعامل بها الجيش الإسرائيلي مع المدينة قصفاً بالطائرات والمدفعية من البر والبحر. ثم حصار بيروت لثلاثة أشهر، مع قطع الكهرباء والماء. وقد صمدت بيروت والمقاومة اللبنانية والفلسطينية وأظهرت المدينة بطولة نادرة في الحصار.

عاش محمود تجارب مثيرة ومخيفة ومؤلمة أثناء الحصار. ويمكن اعتبار ما نشره في كتاب " ذاكرة للنسيان" من أهم نصوص الكتابة عن الحصارات والحروب، كما أنه كتب لاحقاً قصيدته الشهيرة الطويلة " مديح الظل العالي".

١ - تجربة احتمالات الموت، في كل لحظة، خصوصاً وأنه كان مطلوباً من الجيش الإسرائيلي للاعتقال والأسر، بهدف تحطيم وإذلال واحدٍ من رموز الثقافة والتحريض الفلسطيني، كان مطلوباً مع مجموعة من الرموز منهم الرسام ناجي العلي والشاعر معين بسيسو والباحث أنيس صايغ وغيرهم، وطبعاً في المقدمة أيضاً القيادة الفلسطينية وعلى رأسها ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير، وقائد معارك بيروت.

كانت الطائرات تقصف بناية من عشر طوابق إذا جاءتها إخبارية (قد تكون كاذبة) أن عرفات ينام في قبوها:

" ما زلتُ حيّاً - ألفُ شكرٍ للمصادفةِ السعيدة .

يبذل الرؤساءُ جهداً عند أمريكا لتُفْرِجَ عن مياهِ الشربْ.

كيف سنغسلُ الموتى؟

ويَسْألُ صاحبي: وإذا استجابتْ للضغوطِ فهل سَيُسْفِرُ

مَوْتُنا عنْ:

دولةٍ ...

أم خيمةٍ؟

قلتُ: انتظرْ! لا فرقَ بينَ الرايتينْ

قلتُ: انتظرْ حتّى تصبَّ الطائراتُ جَحيمَها!

....

يا فجرَ بيروتَ الطويلاْ

عجّلْ قليلاْ

عجّلْ لأعرف جيداً:

إنْ كنتُ حيّاً أم قتيلا ."

٢ - تجربة صبرا وشاتيلا ، وهما مخيمان فلسطينيان دخلتهما قوات لبنانية وإسرائيلية ليلاً ، وقتلت كل من في المخيم من الرجال. وبلغت حصيلة المجزرة ثلاثة آلاف وكان بينهم نساء وأطفال وشيوخ. لقد حصلت المجزرة انتقاماً من صمود بيروت والمقاتلين الفلسطينيين.

انتقلت صورة المجزرة إلى العالم. وكانت إدانات وتقزز من البربرية الإسرائيلية. ولكن لم يحدث شيء لأي من مرتكبيها.

بل انتقل المشرفُ عليها الجنرال شارون، بعد فترة ليست طويلة، من وزارة الدفاع إلى رئاسة الوزارة.

لكن المجزرة انتقلت إلى ضمير ووجدان كل شاعر وكاتب فلسطيني، وعربي ومازالت، حتى هذه اللحظة، ذاكرة موت جماعي استخدمت فيه حتى البلطات والسكاكين للتنكيل بسكان المخيمين.

عند محمود درويش، في قصيدته المذكورة أعلاه، تبدو صبرا وشاتيلا على هذا النحو:

صَبْرا تخافٍ الليل. تَسْنُدُهُ لرُكْبتيها

تغطّيه بكحلِ عيونها. تبكي لتُلهيهِ:

رحلوا وما قالوا شيئاً عن العودة

ذَبُلوا وما مالوا

عن جمرةِ الوردةْ

عادوا وما عادوا

لبدايةِ الرحلةْ

والعمرُ أولادُ

هربوا من القبلة

لا، ليس لي منفىً

لأقولَ: لي وطنُ

الله، يا زمنُ ..!

صبرا تنادي...مَنْ تنادي

كلُّ هذا الليلِ لي، والليلُ ملحُ

يقطعُ الفاشيُّ ثدييها - يقلُّ الليل -

يرقصُ حولَ خِنْجَرِهِ ويَلْعَقَهُ. يغنّي لانتصار الأرز

موّالاً، ويمحو..

في هدوءٍ.. في هدوءٍ لَحْمَها عَنْ عظمِها

ويمدّدُ الأعضاء فوق الطاولة

ويواصل الفاشيُّ رقْصَتَهُ ويضحك للعيونِ المائلة .

....

صبرا - تقاطعُ شارعين على جَسَدْ

صبرا - نزولُ الروحِ في حَجَرٍ

وصبرا لا أحد

صبرا هُوّيةُ عصرنا حتى الأبد ...

٣- تجربة الخروج الفلسطيني الثالث إلى المنافي، المتعددة هذه المرّة، حيثُ توزّعَ المقاتلون على دول عديدة: سورية. تونس. الجزائر. قبرص. اليونان. وكانت مشاهد الوداع قاسية حيث ترك المقاتلون وراءهم عائلاتهم وأطفالهم. وكان قسم من هذه العائلات من سكان صبرا وشاتيلا، وتعرض معظمهم للموت!

ولعل المنفى هو الذي يؤجج في صدر كل فلسطيني، وبشكلٍ يوميٍ، صورةَ الوطن وفكرته.. الوطن الذي كان في الأدب الفلسطيني رمزاً لحقيبة مسافر أبدي، والحقيبةُ إشارة إليه. في قصيدة "مديح الظل العالي" نفسها نقرأ هذا المقطع المؤلم:

....

وطني حقيبة

وحقيبتي وطني

ولكن ... لا رصيف ولا جدارْ.

ولا سماء

حولي

لأثقبَها وأدخُلَ في خيامِ الأنبياءْ

.....

وطني حقيبة

وحقيبتي وطنُ الغَجَرْ

شعبٌ يخيّمُ في الأغاني والدخانْ

شعبٌ يفتّشَ عن مكانْ

وطني حقيبة

من جلدِ أحبابي

وأندلُسَ القريبةُ

وطني على كتفي

بقايا الأرض في جَسَدِ العروبة

بقي محمود درويش في بيروت طيلة أيام الحصار، وحتى بعد احتلال بيروت وخروج المقاتلين منها. يروي في مقابلة عن تلك الأيام:

" عندما خرجت القيادة الفلسطينية والمقاتلون من بيروت لم أخرج. بقيت في بيروت أشهراً عدّة. لم أتوقع إن الإسرائيليين سيحتلون بيروت. ولم أجد معنى لخروجي في السفن مع المقاتلين. ولكن في صباح ذات يوم وكنت أسكن في منطقة الحمراء، خرجت لأشتري خبزاً وإذا بي أشاهد دبابة إسرائيلية ضخمة. دخلت إسرائيل قبل الإعلان عن الدخول. حينذاك وجدت نفسي وحيداً أتجول في الشوارع ولا أرى سوى الدباباتَ والجنود الإسرائيليين ورجالاً ملثمين. قضيت فعلاً أياماً صعبة جداً ولم أكن أعرف أين أنام.

كنت أنام خارج البيت في مطعم، وأتصل بجيراني لأسألهم إن كان الإسرائيليون سألوا عني. إذا قالوا: نعم جاؤوا، فكنت أدرك أنهم لن يأتوا مرة أخرى، فأذهب إلى بيتي، أتحمّم و أرتاح ثم أعود إلى المطعم. إلى أن حصلت

الكارثة الكبرى وهي مجزرة صبرا وشاتيلا. عند ذاك تيقنت من أن بقائي هناك ضرب من العبث والطيش.

وكيف خرجت؟

- رتّبتُ الأمر مع السفير الليبي في بيروت حينذاك. فهو كان في مقدوره أن يأخذني من منطقة الأشرفية التي كانت " الكتائب " تسيطر عليها ، إلى سورية. ولكن كان عليه أن يجد طريقاً ليأخذني من بيتي إلى مدخل الأشرفية. اتفقنا مع ضابط لبناني أوجد لنا شارعاً كان سيمر به الرئيس الراحل شفيق الوزان. وكان هناك اتفاق بين الإسرائيليين والحكومة على ألا يتعرضوا لهذا الشارع. وفعلاً سلكنا هذا الطريق وخرجنا من بيروت. وعندما وصلنا إلى طرابلس ، ذهبنا إلى مطعم لنأكل السمك بعدما مللنا أكل المعلبات. وبعدما دخلت الحمام لأغسل يديّ نظرت إلى المرآة فرأيت أنفاً عليه نظارتان. لم أعرف صاحب هذا الوجه لثوانٍ. كأنني كنت أنظر إلى وجه آخر. وعندما وصلت إلى دمشق أقمت هناك أسبوعاً. وكان حصل حادث طريف جداً على الحدود السورية-

اللبنانية، فالضابط اللبناني على الحدود الذي طلب أوراقي، وكنت أحمل جواز سفر تونسياً دبلوماسياً، وجد إن أقامتي قد انتهت وهذه مخالفة قانونية. قلت له: صحيح، ولكن ألا تسمع الأخبار؟ ألا تعرف أن ما من سفارات أو دوائر تعمل؟

ذهبت بعد دمشق إلى تونس، وهناك رأيت مشهداً تراجيدياً: الرئيس عرفات وجميع القادة.. كل الثورة الفلسطينية تقيم في فندق على شاطئ البحر. كان المشهد مؤلماً جداً ويستدعي كتابة رواية عن هذا المصير...."

سافر بعد ذلك إلى فرنسا، وهناك بدأت مرحلة التعبير الكبرى عن المأساة الفلسطينية. التي تفاقمت فصولها بعد الخروج الجماعي من لبنان، فكتبَ أهمَّ أعمالهِ الشعرية هناك. ونشر، بالاشتراك مع الشاعر سميح القاسم، كتاب الرسائل المتبادلة بينهما (محمود- باريس) و(سميح- فلسطين) على صفحات مجلة عربية كانت تصدر في باريس، اسمها " اليوم السابع ".

كان محمود عاشقاً لبيروت. كتب عنها " قصيدة بيروت "وهي وصف عميق للعلاقة، متعددة الجوانب، مع مدينة أحبها شاعر وملئت بمقاطع المديح والرؤية المستقبلية لمصائر البشر والمدن... كانت قصيدة تنبؤ بالقادم بعد عام:

بيروت خيمتُنا

بيروت نجمتُنا

ويتكرر هذا المقطع:

بيروت خيمتُنا الوحيدة

بيروت نجمتُنا الوحيدة

....

تفاحةٌ للبحر. نَرْجِسةُ الرخامْ.

فراشةٌ حَجرّيةٌ. بيروت شكل الروح في المرآة

وصفُ المرأةِ الأولى، ورائحةُ الغمامْ.

بيروتْ من تَعَبٍ ومن ذَهَبٍ، وأندلسٌ وشام.

فضَّةٌ. زَبَدٌ، وصايا الأرضِ في ريشِ الحمام.

وفاةُ سُنْبلةٍ. تشرّد نجمةٍ بيني وبين حبيبتي بيروت.

لم أسمعْ دمي من قبلُ ينطق باسم عاشقة تنـــام علـــى دمي... وتنام

....

كأننا أسلافُنا نأتي إلى بيروتْ كي نأتي إلى بيروت....

❖ ❖ ❖

الشاعر والسياسة

لم يكن محمود درويش، كشاعر، راغباً في الدخول إلى منطقة القيادة السياسية. ونظراً لخبرته في الكفاح داخل الأرض المحتلة، ومعرفته بالمجتمع الإسرائيلي الذي عاش فيه طويلاً، كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ترى السياسة في عقل الشاعر، كما الشاعر في قلب السياسة. ولذلك بذل ياسر عرفات جهداً لإقناعه بالانضمام إليهم في اللجنة التنفيذية عام ١٩٨٨ إلى جوار القادة التاريخيين المعروفين مثل أبو جهاد (استشهد على يد الكوماندوس الإسرائيلي في تونس) وأبو أياد (استشهد أيضاً) وأبو مازن (رئيس السلطة الفلسطينية حالياً) وأبو اللطف (رئيس الدائرة السياسية)... وغيرهم.

كان وجود محمود في قيادة المنظمة مؤقتاً من وجهة نظره، ذلك أنَّ الشاعر فيه كان يدفعه إلى التفرغ لشؤون الكتابة:

يقول إدوارد سعيد إنك لعبت دوراً سياسياً في منظمة التحرير مضيفاً عبارة (على مضض) ماذا تعني لك هذه العبارة، مع أنك كنت شديد القرب من عرفات، مستشاراً وعضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة؟

- (على مضض) تعني أنني لم أرغب، بيني وبين نفسي، في أن أكون عضواً في القيادة الفلسطينية. كنت أفضل أن أبقى في مجالي الحيوي فلا أحتل موقعاً يتعارض مع نزعات الشاعر الخاصة. كوني عضواً في اللجنة التنفيذية تسبّب في تأويلات مبالغ فيها لما أقول أو أكتب، وكأن هناك شعراً رسمياً أو مقالات رسمية. وهذا بعيد كثيراً عن طبيعتي ومن حقيقة كتابتي الشعرية. ثم أنني لا أصلح للعمل الرسمي والإداري والاجتماعات الطويلة والسهر الطويل والزيارات الرسمية والسفر المضني. لقد انتخبت وأنا غائب، سمعت الخبر في الراديو وكنت في النورماندي في فرنسا فبكيت. وأول مقال كتبته حينذاك عنوانه" قبل كتابة الاستقالة" لكن خضوعي لضغوط معنوية وأخلاقية عالية جعلني أمتثل لهذه العضوية لفترة محدّدة، نحو خمس سنوات، كنت بعدها أستطيع أن أنصرف إلى همومي الخاصة، إلى حياتي، إلى

شعري و إلى عشوائيتي أو فوضاي. صحيح إن في الإنسان أكثر من شخصية ، لكن طبيعة التعبير عن كل شخصية تختلف.طبيعة السياسي تختلف عن طبيعة الشاعر.

بعد اتفاق أوسلو انتقل من باريس إلى رام الله في فلسطين المحتلة ليبدأ مرحلة جديدة أخرى ، على مقربة من الدبابة الإسرائيلية وحطام تجوالها بين البيوت :

- بعدما أصبح في إمكاني أن أعود إلى "جزء" من فلسطين و ليس إلى "جزء" شخصي بل إلى "جزء" من وطن عام ، وقفت طويلاً أمام خيار العودة. وشعرت بأن من واجبي الوطني و الأخلاقي ألا أبقى في المنفى. فأنا أولاً لن أكون مرتاحاً ، ثم سأتعرض لسهام من التجريح لا نهاية لها ، ثم سيقال أنني أفضل باريس على رام الله أو على غزة. وبالتالي اتخذت الخطوة الشجاعة الثانية بعد الخروج وهي خطوة العودة. وهاتان الخطوتان من أصعب الأمور التي واجهتها في حياتي : الخروج والعودة. اخترت عمان لأنها قريبة من فلسطين ثم لأنها مدينة هادئة و شعبها طيب.و فيها أستطيع أن أعيش حياتي. وعندما أريد أن أكتب أخرج من رام الله لأستفيد من عزلتي في عمان.

التوتر عالٍ جداً في رام الله. ومشاغل الحياة الوطنية واليومية تسرق وقت الكتابة. إنني أمضي نصف وقتي في رام الله. والنصف الآخر في عمان وفي بعض الأسفار. في رام الله أشرف على إصدار مجلة "الكرمل".

- لم تعد حياتك صاخبة سياسياً مثلما كانت من قبل ؟

- الصخب لا أستطيع أن أتحرر منه. مصيرنا الوطني والإنساني يعذب النفس ويعذب الفكر. ونحن الآن في لحظة تاريخية يسود فيها، لا أريد أن أقول، قانون الغاب، ولكن استبداد كوني لا يصيبنا وحدنا، لكننا نشعر به أكثر من سوانا، لأننا نحن الأضعف الآن في العالم. من هنا، فهذا الصخب قوي جداً ولكن يجب ألا نرد عله بصخب كتابي. فأنت لا تستطيع أن تصارع الصخب بصخب لغوي، فالصخب المادي أقوى من الصوت الذاتي.عليك أن تقاوم هذا الصخب بنقيضه. بل بلغة أهدأ وبالتأمل وبارتباط أعلى بالحياة، وبتمجيد جماليات الحياة وبالبحث عن الطاقة الكامنة في النفس البشرية.... هكذا تستطيع أن تسمع صوتك. فالصخب الخارجي العالي يستطيع أن يبتلع صوتك. أنني أقاوم الصخب بالسكينة.

❖ هل من علاقة لك بالسلطة الفلسطينية؟

- رسمياً أنا لا علاقة لي بأي سلطة، ولكن على المستوى الشخصي علاقتي ممتازة مع رئيس السلطة ورئيس الحكومة ومعظم الوزراء.

لا أمارس دوراً كبيراً سياسياً بل أمارس دوراً ثقافياً وينتابني شعور بالغربة، إلا إن واجبي الوطني يناديني كي أكون هناك. وهذا أضعف الإيمان. أنا إذاً هنا وهناك وأشعر بحزن وإحباط.

❖ عندما تكون في رام الله هل تشعر بأنك فعلاً في وطنك فلسطين أم وطنك استحال بقعة ما في ذاتك وشعورك وذاكرتك؟

- شعوري خجول جداً، ولغتي خجولة. لا أشعر كثيراً أنني في وطن. أشعر بأنني في سجن كبير مقام على أرض الوطن وكأنني لم أتحرر من منفاي. فمن كان يحمل الوطن في المنفى ما زال يحمل المنفى في الوطن. والحدود ملتبسة جداً، بين مفهومي الوطن والمنفى. ولكن أهم أمر هو ألا نسقط الوطن من أيدينا ولا من مخيلتنا. تعرضنا كثيراً لمحاولة الوقيعة بيننا وبين هذه البلاد. فالإسرائيليون

يقيمون الجدران ليس بيننا وبينهم فحسب ولكن بيننا وبين أنفسنا، بيننا و بين ذواتنا.

❖ كيف تصف نفسك الآن كمواطن فلسطيني؟

- أنا الآن في فلسطين، مواطن فلسطيني، محاصر بكل شروط الاحتلال والحصار والعزلة التي تفرضها إسرائيل. وأدافع عن حقنا في امتلاك مستقبل أفضل على أرضٍ أوسع، مع الاحتفاظ بحريتنا في أن نحلم بشيء يبدو مستحيلاً مثل العدل والسلام والتحرر. لا أستطيع أن أتكلم عن فلسطين في هذا اللحظة إلا بكثير من الإحباط. ففلسطين تتناقص جغرافياً مع أنها لا تزال في مكانها، لكن الواقع الإسرائيلي يقضمها كل يوم، ويحيط ما يريده أن يكون لنا وطناً نهائياً بالأسوار والجدران. والعالم العربي المحيط بفلسطين يتعرّض أيضاً للمزيد من الاحتلال أي أنه "يُفلسطن" في شكل أو في آخر.

ضاقت الخيارات على الشعب الفلسطيني ولم يبق أمامه سوى خيارين، إما الحياة وإما الحياة. ومن حقه أن يدافع عن نفسه. وأول سلاح هو أن يحافظ على ذاته وحقه وهويته، وثانياً أن يلجأ إلى الوسائل التي تحفظ صورته

الإنسانية والوطنية ولا تمدّ المحتل بما يريد لها من تشويش واضمحلال. مقاومة الاحتلال ليست حقاً فلسطينياً فقط بل هي واجب.

من أهم الوثائق السياسية التي كتبها محمود خلال علاقته بالقيادة هي خطاب فلسطين في الأمم المتحدة، الذي ألقاه ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير عام ١٩٧٤. وكانت فلسطين تُدعى لأول مرة في التاريخ لحضور جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة. وقد أشتهر ذلك الخطاب بالعبارة التي لخصت توجّه الفلسطينيين إلى السلام:

- إنني أحمل البندقية في يد، وغصن الزيتون في اليد الأخرى، وآمل ألا تدعوا هذا الغصن يسقط من يدي_

الوثيقة الثانية هي وثيقة الاستقلال التي أعلنت قيام دولة فلسطين وذلك في المجلس الوطني في الجزائر عام ١٩٨٠، كانت تلك من اللحظات المؤثرة جداً في التاريخ الفلسطيني. كانت الوثيقة إعلانٌ أول بالاعتراف بدولتين: فلسطينية على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ (الضفة الغربية وغزة) ودولة إسرائيل في منطقة التقسيم وتوسعاتها، وبالطبع حتى هذه اللحظة لم يتحقق أي جزء من الحلم الفلسطيني....

❖ ما أجمل ما كتبته لعرفات؟

- عرفات يقول إن أجمل ما كتبته له هو نص إعلان الدولة. وأعتقد شخصياً أنه أجمل نص كتبته في هذا القبيل. والمفارقة أنني كتبته بعد أوسلو. كنت حينذاك في باريس وجاء عرفات وطلب مني أن أكتب النص وكان موضوعه فكرياً، حول مشكلات العالم... وفي الاجتماع كان رؤساء العالم موجودين، واستشهد أكثر من رئيس بالنص الذي قرأه عرفات، فقال لي " أرأيت كم إن خطابك جيد" فقلت له: هذا أصبح خطابك أنت.

كان محمود درويش يتمتع بحس وعقل الشاعر، ويستشعر الصواب في الغامض من الأحداث، ولذلك كانت له عباراته السياسية الصائبة وآراؤه في الأحداث، مرهقاً قلبه بصياغة المأساة شعراً وتوتراً وأملاً.

❖ ❖ ❖

الشاعر و الجمهور

لم يحظ شاعر في اللغة العربية بالمكانة التي احتلها محمود درويش، من حيث عدد القراء، وعدد حضور أمسياته الشعرية.

لقد طبعت أعماله الكاملة عشرين طبعة. وكذلك أعماله المتفرقة التي طبعت عدداً متزايداً من الطبعات، لاسيما بعد رحيله.

نتذكّر مرةً أن إحدى أماسيه، في دمشق، جرى تغيير مكانها من صالة مغلقة إلى ملعب رياضي مفتوح، لاستيعاب العدد الهائل من الناس. وفي كل أمسية كان درويش يغذّي ذاكرة جمهورهِ بقصائده الجديدة، والتي رغم فنيّتها العالية، كان الجمهور يتذوقها، ناسياً المطالبة بتلك القصائد الحماسية القديمة. السبب في ذلك أن الشاعر استطاع جذب الانتباه إلى الركنين الأساسيين في قصيدته: عالم لمأساة (والمقاومة) وعالم الشعر (والوجدان) والجمال.

لم تتعرض علاقة هذا الشاعر بجمهوره لأي اهتزاز أو تناقص. وعلى الرغم من تنوع وتطور الأجيال، التي تختلف ذاكرتها وتتنوع على مر السنين، فإنه ظل يطور التجربة الشعرية ويفترض أن جمهوره يتطور مع هذه التجربة. فمن القصائد البسيطة للمقاومة، مثل "سجّل أنا عربي" إلى "زهر اللوز أو أبعد"، ظلَّ الجمهور يصغي إلى النبض المقاوم والوطني والكوني في قصيدة مليئة بالفن الشعري العالي. ولقد ظل يطوّر ويتطور في الشكل والمضمون حتى آخر قصيدة كتبها.

في مقابلة مع جريدة "الحياة" يقول محمود درويش رداً على هذا السؤال:

● لا تزال تصر على "صدمة" جمهورك، وما زال هذا الجمهور يتابعك في أمسياتك الشعرية. كيف تنظر إلى هذا الجهور وإلى "الصدمة" التي تحدثها فيه عندما تقرأ له قصائدك الجديدة التي تختلف عن القصائد الأولى التي يميل إليها عادة؟

● لا أعرف إن كان الجمهور يميل إلى القصائد الأولى حقاً. لم يعد الجمهور يطالبني كما في السابق بأن أقرأ ما في ذاكرته من شعري. وهذا حسن. واستطعت أن أجد ما يشبه

الثقة المتبادلة بيني وبين القراء. إنني لا أحب كلمة جمهور. لنقل المتلقي أو القارئ. فالجمهور ليس كتلة واحدة متجانسة. وأنا لا أستطيع أن أتكلم عن الجمهور بطلاقة. لأنني سأرتكب أخطاء كثيرة. ثم من هو الجمهور؟ قد يكون مجموعة من الشعراء والمثقفين، قد يكون من سائقي التاكسي أو ربات البيوت أو الطلاب. إنني أواكب قرائي مثلما هم يواكبونني وهم يتطورون ويتغيرون. وأكثر ما يسعدني في هذا الوقت، أفاجأ أينما ذهبت بأن الذين يحضرون الأمسيات الشعرية هم في ما يقارب التسعين في المائة من الجيل الجديد ومن الشباب في العشرينات. وهذا يعني أن قرائي الذين يحبون قصيدة "سجل أنا عربي" رحلوا وتركوني أو أنهم اكتفوا بذلك.

- ولكن هل تعتقد أن الشعر قادر على أن يعبّر عن كل ما يجيش في نفسك وما يدور في رأسك من أفكار؟

- هناك شعراء يقولون إن اللغة لا تتسع لهم وإنهم أكبر من اللغة. وجموح الشعراء إلى إصدار مقولات كبيرة قد يكون مقبولاً. هل سمح لي الشعر أن أقول كل ما أريد أن أقول؟ ليس هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي. بل

هو : هل أستطيع أن أقول أكثر مما قلت؟ هذا ما يؤرقني. ولكن لا أحد يستطيع أن يكتب كل ما في داخله.

بسبب قصيدته الشهيرة "عابرون في كلام عابر" قامت إسرائيل ولم تقعد، وربما تكون هذه القصيدة من الأعمال النادرة في العالم التي تثير ردود أفعال عدوانية من هذا النوع تجاه شاعر. ولقد أثير حولها جدل وغضب في"الكنيست" (البرلمان الإسرائيلي) عن هذه الضجة يقول محمود :

كادت الحكومة الإسرائيلية أن تسقط. حينذاك سألتني إحدى الصحف الإسرائيلية فقلت لها : كنت أعتقد أنكم دولة تحترمون أنفسكم إلى حد أنكم تسقطون الحكومة لأسباب داخلية سياسية ولكن ليس لأسباب شعرية، كنت أعتبر أنكم أقوى من ذلك.

❖ ❖ ❖

شخصية وملامح

محمود درويش بنى حياته كلّها على مشروعه الشعري. ولذلك كان يحب العزلة، تفرغاً للقراءة والكتابة، وابتعاداً عن شغب وضجيج الحياة اليومية. كان يعتكف في بيته لا يخرج أياماً وأسابيع. ومرة، عندما كتب " ذاكرة للنسيان " بقي ثلاثة أشهر لا يخرج.

- البيت يعني لي الجلوس مع النفس ومع الكتب ومع الموسيقى ومع الورق الأبيض. البيت هو أشبه بغرفة إصغاء إلى الداخل ومحاولة لتوظيف الوقت بشكل أفضل. ففي الستين يشعر المرء بأنه لم يبق لديه وقت طويل. وشخصياً أعترف أنني أهدرت وقتاً طويلاً في ما لا يجدي، في السفر، في العلاقات وغير ذلك. إنني حريص الآن على أن أوظف وقتي لمصلحة ما أعتقد بأنه أفضل وهو الكتابة والقراءة. يشكو كثير من الناس من العزلة، أما أنا فإنني أدمنت

العزلة، ربيتها وعقدت صداقة حميمة معها. العزلة هي أحد الاختبارات الكبرى لقدرة المرء على التماسك وطرد الضجر.؟ هي أيضاً قوة روحية عالية جداً. أشعر بأنني إذا فقدت العزلة فقدت نفسي. أنا حريص على البقاء في هذه العزلة، وهذا لا يعني أنه انقطاع عن الحياة والواقع والناس.... إنني أنظم وقتي في شكل لا يسمح لي بأن أنغمر في علاقات اجتماعية قد لا تكون كلها مفيدة.

- متى توطدت علاقتك القوية بالبيت؟ في أي مرحلة من حياتك؟

- علاقتي القوية بالبيت نمت في المنفى أو في الشتات. عندما تكون في بيتك لا تمجّد البيت ولا تشعر بأهميته وحميّميته، ولكن عندما تحرم من البيت يتحول إلى صبابة وإلى مشتهى، وكأنه هو الغاية القصوى من الرحلة كلها. المنفى هو الذي عمّق مفهوم البيت والوطن، كون المنفى نقيضاً لهما.

- أي بيت أحببت خلال منفاك؟ وهل من علاقة بين البيت والمدينة التي تكون فيها؟

- لا شك في هذه العلاقة. فالبيت لا ينفصل عن محيطه. بيت في حيفا يختلف عن بيت في باريس أو القاهرة أو بيروت. نوافذ البيت مفتوحة على أصوات الخارج. أما البيت المجازي الذي يخلقه الشاعر لنفسه فإنما هو بيت داخلي يخترعه الشاعر نفسه. إنه عبارة عن بيت شعري. هكذا يتحول البيت إلى بيت شعر وبيت الشعر يصبح مسكناً أو مأوى. لذلك أحب كثيراً عثور العرب على كلمة واحدة ذات معنيين البيت أي المنزل والبيت الشعري، وهذا تطابق جميل.

ومحمود رجل خجول، رغم ما يبدو عليه من صراحة وقسوة أحياناً في تعامله مع غير الأذكياء والمتطفلين والأدعياء، الموجودين هنا وهناك في مسرح الثقافة والحياة. وفي نفس الوقت هو رجل محبّ، وحتى عندما يخفي هذا الحب، تظهر علاماته في سلوك بسيط ولفتة منعشة وابتسامة مشعّة.

علاقته بأمه مشهورة في قصائده، التي غنّى معظمها مارسيل خليفة مثل "أحن إلى قهوة أمي"، يقول مارسيل:

اليوم، أنا الذي حملت شعره وسافرت به بعيداً. أنا الذي حَمَلَ تُرابَهُ وحنِينَهُ إلى أمّهِ و"ريتّا" وزيتونَه وكرملَهُ. هل

تصدّقونني إن قلت لكم: إن الشعراء لا يموتون، لكنهم يتظاهرون بالموت؟

كان محمود عفيفاً، تلك العفة التي للمبشرين، وكريماً، ذلك الكرم السخيّ في وضوح. لم يعنه المال ولا الملكيات الخاصة. ترك أشياءه دائماً في المكان الذي يغادره، إلى منفى آخر.

وكان حزيناً بصورة دائمة، ومرحاً بصورة دائمة. يتذوق حلاوة الحديث، والطُرفةَ الذكيّةَ، ويعاني مرارةَ فقدان الأصدقاء والرموز الوطنية. كَتَبَ قصائد في لحظة موتهم وفي ذكراهم: إدوارد سعيد. ماجد أبو شرار. عز الدين القلق، معين بسيسو. وآخرون.

لم يكوّن محمود أسرة، وينجب أطفالاً. ربما لأنه لا يريد لهم ما قررّته الأقدار له. وربما لأن الشاعر لا يبقى شاعراً وهو ساعي بريد التفاصيل اليومية، وربما لأن امرأة العصور، التي يتخيّلها ويكوّنها الشاعرُ، لم تأتِ بعدْ!

أما حياته الخاصة فهي محاطةٌ بورودِ كُتْمانِها، لا سيّما علاقات الحب، التي لم تَظْهرْ كثيراً في شعره، كما عند غيره

من الشعراء. لكنَّ قصيدة "ريتا" تفصح عن تجربة حبٍّ مبكرةٍ مع فتاة يهودية، كانت يهوديتُها وفلسطينيتُهُ، في قلب الصراع، حائلاً بينهما:

بين ريتّا وعيوني بندقية

والذي يعرفُ ريتّا ينحني

ويصلّي

لإلهٍ في العيون العسليّة

وأنا قبّلتُ ريتّا عندما كانت صغيرةْ

وأنا أذكر كيف التصقتْ بي،

و غطّتْ ساعدي أحلى ضفيرةْ

و أنا أذكر ريتّا

مثلما يذكر عصفورٌ غديرهْ

آه... ريتّا

بيننا مليون عصفور وصورة

ومواعيد كثيرة

أطلقت ناراً عليها بندقية

نقتطف بعض أجوبة محمود عن الحب من مقابلة في جريدة " الحياة " :

- "سرير الغريبة" هو من كتب الحب الجميلة جداً وأعتقد أنه استطاع أن يضع حداً لمقولة المرأة ـ الأرض أو الحبيبة ـ الوطن التي طالما تكلم عنها النقد إزاء شعرك. كيف ترى هذه المقولة وهل من علاقة لها بـ "سرير الغريبة"؟ هل سئمت هذه المقولة؟

- لا لم أسأمها، ولكن هناك خطر من استمرار التمسك بالرمز. المرأة كائن بشري وليست وسيلة للتعبير عن أشياء أخرى. الوردة كائن جمالي من دون أن يرمز إلى جرح أو دم. هذه محاولة لتطبيع علاقتي مع اللغة أو الكلمات أو الأشياء، ولتطبيع علاقتي أيضاً بالنظر إلى الفلسطيني ككائن بشري أولاً، قبل أن يكون قضية. فالهوية الإنسانية للفلسطيني سابقة للهوية الوطنية. صحيح أننا في صراع طويل يستلزم أن يقوم الشاعر خلاله بدور في بلورة الهوية الثقافية وفي حماية الروح من الانكسار، ولكن يجب ألاّ يلغي هذا الأمر حقنا الإنساني في

التأمل في طبيعتنا البشرية. فالفلسطيني إنسان يحب ويكره ويتمتع بمنظر الربيع ويتزوج... إذاً المرأة تحمل معاني أخرى غير الأرض. جميل أن تكون المرأة وعاء للوجود كله. ولكن يجب أن تكون لها شخصيتها كامرأة. نحن لسنا خطاباً. نحن لسنا بياناً. وكما قلت أكثر من مرة وأكرر: الفلسطيني ليس مهنة بل كائن بشري يناضل ويدافع عن أرضه و حقه."

- هل يضيرك أن تُسمى مثلاً شاعر حب وليس شاعر غزل طبعاً؟

- أتمنى أن أكون شاعر حب أو أتمنى أن تسمح لي ظروفي التاريخية أن أكون شاعر حب، لأن شعر الحب هو أجمل ما يمكن أن يكتب من شعر. و الحب لا ينتهي. شعر النضال ابن مرحلة ما وهو ضروري، ولكنه لا يقدر على الاستمرار. الصراع عملية مستمرة، الصراع في معناه الإيجابي، وهو يأخذ أشكالاً متعددة، منها صراع الإنسان مع قلبه، الصراع بين العقل والقلب، نداء الغريزة، حق الرغبة في التعبير عن نفسها.

- هل عشت قصص حب وخيبات حقيقية؟ وهل كتبت انطلاقاً من تجارب عشق حية؟

- كل ما أكتبه في الحب أم في سواه ناجم عن تجارب حية.

- هل هناك امرأة معينة كتبت عنها أو لها؟

- ربما. ولكن ليس كما يعبر عنها شعري. لماذا؟ لأنك إذا بدأت في كتابة قصيدة حب لا يمكنك أن تكتب عن المطلق في الحب، أنت تكتب عن امرأة معينة. لكن الكتابة تأخذ مجرى من سياق حادثة الحب. حينذاك تختلط ملامح المرأة التي تكتب عنها بملامح امرأة أخرى أو نسوة أخريات، كذلك، بملامح الشجر والماء والتراب. النص يبدأ دائماً من المحدد ثم ينتقل إلى الكلي. أما أن يكون لدي امرأة مثل "إلسا" حبيبة الشاعر أراغون فهذا صعب. ليس لدي "إلسا". هذا مع اعتقادي بأن "إلسا" كانت ذريعة للشاعر أراغون.

أصيب محمود بنوبة قلبية أولى في الثمانينيات عام ١٩٨٤ نجا منها. ثم أصيب بنوبة أخرى عام ١٩٩٨ نجا منها أيضاً،

ولكن بقلب معطوب، بعد عملية جراحية صعبة. فمنعه الأطباء من متع كثيرة، بينها التدخين:

شهوتي للحياة أقل. أحاول التمتع بكل دقيقة ولكن بطرق بسيطة جداً، كأس من النبيذ مع الأصدقاء، التمتع بالطبيعة، مراقبة قطط الحارة. كنت أتحدث، غير أنني أصبحت حكيماً.

كتب محمود عن الموت الذي رآه، أبيض ومؤكداً ووجهاً لوجه، قصائد كثيرة، ولكنه سجّل كل ما رآه وفكّر به وعاناه من المواجهة مع الموت في ديوانه العظيم "الجدارية":

أيها الموت انتظرني خارجَ الأرض،

انتظرني في بلادك، ريثما أنهي

حديثاً عابراً مع ما تبقى من حياتي

قرب خيمتك، انتظرني ريثما أنهي

قراءةَ طرفة بن العبد.يغريني

الوجوديون باستنزاف كل هنيهة

حرية، وعدالة، ونبيذ آلهة../

فيا موتُ! انتظرني ريثما أنهي
تدابيرَ الجنازةِ في الربيع الهشّ،

حيث ولدت، حيث سأمنعُ الخطباءَ
من تكرار ما قالوا عن البلد الحزينْ
وعن صمود التين والزيتون في وجه
الزمان وجيشه. سأقول: صبُّوني
بحرف النون، حيث تعبُّ روحي
سورةَ الرحمن في القرآن، وامشوا
صامتين معي على خطوات أجدادي
ووقع الناي في أزلي. ولا
تضعوا على قبري البنفسجَ، فهو
زهرُ المحبطين يذكّرُ الموتى بموت
الحب قبل أوانه، وضعوا على
التابوت سبعَ سنابلٍ خضراءَ إن

وُجِدَتْ، وبعضَ شقائقِ النعمانِ إن

وُجِدَتْ، وإلا فاتركوا ورد

الكنائس للكنائس والعرائس/

❖ ❖ ❖

و يا موتُ أنتظرْ، يا موتُ،

حتى أستعيدَ صفاءَ ذهني في الربيع

- سئل ذات مرة: هل تخاف الموت؟ فأجاب:

- لم أعد أخشاه كما كنت من قبل. لكني أخشى موت قدرتي على الكتابة وعلى تذوق الحياة. لكنني لن أخفيك أن الطريقة التي مات فيها الشاعر معين بسيسو في الفندق، وكانت غرفته مغلقة وعلى الباب إشارة "الرجاء عدم الإزعاج" جعلتني أخشى هذه الإشارة أو اللافتة. فجثته اكتشفت بعد يومين. الآن كلما نزلت في فندق لا أضع هذه الإشارة على الباب. ولا أخفيك أيضاً أنني لا أضع مفتاح باب البيت في القفل عندما أنام.

● أليست الفنون قادرة على هزم الموت كما في قصيدتك "جدارية"؟

- هذا وهم نختلقه كي نبرر وجودنا على الأرض، لكنه وهم جميل.

❖ ❖ ❖

الموت يأتي إلى ...

هناك، في لغة الاستسلام للقدر وتجميل المصائر، قول شهير هو " الموت يأتي إلى كبير الأساقفة".

وها هو ذا يأتي إلى كبير الشعراء في يوم ٩ آب ٢٠٠٨.

ما سبق هذا التاريخ آلام في الصدر. وفي لغة شعرية يمكن القول: " آلام عدم احتمال الألم ".

كان محمود وأطباؤه أمام خيارين: إما إجراء جراحة أخرى في القلب مع شدة الخطورة واحتمالات النجاح الضئيلة وإما أن يعيش بما يشبه " اللغم الدموي" في الصدر... ينفجر، في أية لحظة.

كان خيار محمود أنه لن يبقى تحت رحمة اللغم. فهو لا يطيق الموت ارتماءاً في أمسية، أو في الطريق، أو وحيداً في لحظةِ ليلْ.

ذهب إلى أمريكا. و" في المساء الأخير على هذه الأرض " كان يسهر مع أصدقاء، ليودعهم. كان يبدو على أهبة الخطر. خائفاً بكبرياء، حزيناً بشفافية، مرحاً بشجاعة. شرب كأسين، ودخّن سيجارة لأول مرة منذ العملية الأخيرة. في المشفى أوصى صديقَه الطبيب. إذا كنت لن أعيش إلا بأنابيب الإبقاء السريري. فدعني أمت !

وهكذا كان....

مات محمود....

العالم لم يصدّقْ...

ذلك لأن محمود استحق، كالمتنبي، عبارة "مالئ الدنيا وشاغل الناس".

ولقد تنبأ في قصيدةٍ بموته يوم سبت. ومات يوم سبت.

يواجه الفلسطينيون في المنفى دائماً مشكلة القبور، فحقّ العودة في الحياة، إلى الوطن لم يحصلوا عليه حتى الآن. وحق العودة في تابوت، أيضاً لم يحصلوا عليه حتى الآن. فيحتارون أين يدفنون موتاهم خارج الوطن.

بالنسبة لمحمود ... مُحيتْ قريتهُ عن الوجود. وقريته "الجديدة" التي انتقل إليها طفلاً بعد النزوح ... تحت الاحتلال. هكذا تقرّر أن يُدفَنَ في مدينة " رام الله " مركز السلطة الفلسطينية ، والمكان الأخير لعودة محمود حياً بعد غياب طويل في المنافي.

كُتِبَتْ على قبره قطعة من أجمل قصائده :

على هذه الأرض ما يستحقُّ الحياةْ:

على هذه الأرض، سيّدة الأرض، أمُّ البداياتْ

أمُّ النهايات. كانتْ تُسمّى فلسطينْ .

صارت تُسمّى فلسطينْ .

سيّدتي:

أستحقُّ، لأنكِ سيّدتي،

أستحقُّ الحياةْ

أما ما كُتب عنه بعد موته... فهو كلمات بحجم الدموع التي ذرفت عليه. ولقد كانت إحدى أواخر عباراته قبل الرحيل :

" الموت مثلي لا يحب الانتظار"

وعلى وجه اليقين : سيبقى محمود درويش جيلاً وراء جيل، وإلى الأبد، في الذاكرة العربية : الذاكرة الجمالية، والانفعاليـة، والوطنيـة، ذاكـرة المقاومـة، والـصبر، وصـناعة الـشعر الجميـل مـن أشـد أنـواع خامـات الألم البشري... إيلاماً.

مات محمود، ولم يَرَ حقَّ العودة في أول باص أو طائرة قادمة إلى فلسطين.

وعندما عاد، عاد إلى" وطنٍ في السجن ". وما شاهده لم يكـن شيئاً سوى القتل والحصار والدمار... وهي مفردات حياة رآها وعاشها ... وكتَبَ عنها " حالة حصار " و " حيرة العائد " و " في حضرة الغياب ".

بعد موته ... اكتشف أهلُه وأصدقاؤه، مسوداتِ قصائد مكتملةً وغيرَ مكتملةٍ فقرّروا نشرَها في كتاب اسمه " لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي ".

إن قصائدَهُ الأخيرةَ رمزٌ لبقائهِ حيّاً بعد موته. فـ " النجوم تظل متوهجة حتى بعد انطفائها بوقت طويل ! "

ملاحظة:

ما كُتِبَ عن الشاعر بعد رحيله يحتاج إلى مجلدات. في الصحف والمجلات والأعداد الخاصة بالمناسبة. وربما لم يحظ شاعر في العالم بهذه الكمية من الحزن، والأسف، والرثاء. وقد فضلنا عدم اختيار شيء من هذه الكلمات لهذا السبب.

❖ ❖ ❖

* مختارات *

هناك مشكلة في اختيار قصائد، أو مقطوعات من كتب محمود درويش والسبب ليس غزارة عدد الكتب وإنما غزارة جماليات القصائد، ومناسباتها، ومراحلها التاريخية مثل: قصائد الأرض المحتلة، قصائد ما بعد خروجه من فلسطين، ولاحقاً كل شعره في المنافي المتعددة.

ولذلك اكتفينا بهذا القدر، من قديمهِ وجديده.

وهنا سجل لمؤلفاته:

في الشعر

١ - أوراق الزيتون
٢ - عاشق من فلسطين
٣ - آخر الليل
٤ - حبيبتي تنهض من نومها
٥ - العصافير توت في الجليل
٦ - أحبك أو لا أحبك
٧ - محاولة رقم ٧
٨ - تلك صورتها وهذا انتحار العاشق
٩ - أعراس
١٠ - مديح الظل العالي

١١ - حصار لمدائح البحر	١٢ - هي أغنية هي أغنية
١٣ - ورد أقل	١٤ - مأساة النرجس ملهاة الفضة
١٥ - أرى ما أريد	١٦ - أحد عشر كوكباً
١٧ - لماذا تركت الحصان وحيداً	١٨ - سرير الغريبة
١٩ - جدارية	٢٠ - حالة حصار
٢١ - لا تعتذر عما فعلت	٢٢ - كزهر اللوز أو أبعد
٢٣ - أثر الفراشة	٢٤ - في حضرة الغياب

❖ ❖ ❖

في النثر

١ - شيء عن الوطن	٤ - في وصف حالتنا
٢ - يوميات الحزن العادي	٥ - ذاكرة للنسيان
٣ - الرسائل مع سميح القاسم	٦ - حيرة العائد

بعد رحيله نشر ديوان (**لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي**).

❖ ❖ ❖

* جوائز *

* جائزة لوتس عام ١٩٦٩
* جائزة البحر المتوسط عام ١٩٨٠
* درع الثورة الفلسطينية عام ١٩٨١
* لوحة أوربا للشعر عام ١٩٨١
* جائزة أبن سينا في الإتحاد السوفييتي عام ١٩٨٢
* جائزة لينين في الإتحاد السوفييتي عام ١٩٨٣
* الصنف الأول من وسام الاستحقاق الثقافي تونس ١٩٩٣
* الوسام الثقافي للسابع من نوفمبر ٢٠٠٧ تونس
* جائزة الأمير كلاوس الهولندية عام ٢٠٠٤
* جائزة القاهرة للشعر العربي ٢٠٠٧
* كما أعلنت وزارة الاتصالات الفلسطينية في ٢٧ يوليو ٢٠٠٨ عن إصدارها طابع بريد يحمل صورة محمود درويش
* مرشح أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل، وقد علق محمود على هذا الترشيح:

يقيم العرب كل سنة زفة مما جعل القضية هذه محرجة حقاً، ومن حسن حظ العرب أن أعضاء اللجنة السويدية لا يقرأون العربية ولا يضحكون من إصرار العرب على انتزاع الجائزة.

أبي

غضَّ طرفاً عن القمرْ
و أنحنى يحضنُ الترابَ
وصلّى
لسماءٍ بلا مطرْ
ونهاني عن السفرْ!
أشعَلَ البرقَ أوديةً
كان فيها أبي
يربّي الحجار!
من قديمٍ.. ويخلّف الأشجار
جلدهُ ينذف الندى
يدهُ تورقُ الشَجَرْ
كان في البيت أرغفةٌ

ونبيذٌ وأغطيةٌ

وخيول وأحذيةٌ

وأبي قال مرّة

حين صلّى على حجر

غُضّ طرفاً عن القمر

وأبي قال مرّة:

الذي ما له وطنٌ

ما له في الثرى ضريحْ

.. ونهاني عن السفر!

❖ ❖ ❖

إلى أمّي

أحنّ إلى خبزِ أمي
وقهوةِ أمي
ولمسةِ أمي
وتكبر فيَّ الطفولةُ
يوماً على صدر يوم
وأعشقُ عمري لأنّي
إذا متّ
أخجلُ من دمع أمي!

❖ ❖ ❖ ❖

خذيني إذا عُدتُ يوماً
وشاحاً لهدبكْ
وغطيّ عظامي بعشبٍ
وشدّي وثاقي

بخصلةِ شعرٍ
بخيطٍ يلوّحُ في ذيل ثوبِكْ..
عساي أصيرُ إلهاً
إلهاً أصيرُ
إذا لمستُ قرارةَ قلبِكْ
ضعيني، إذا ما رجعتُ
وقوداً بتنّور نارِكْ
وحَبْلَ غسيلٍ على سطحِ دارِكْ
لأني فقدتُ الوقوفَ
بدونِ صلاةِ نهاركْ
هَرِمتُ، فردِّي نُجُومَ الطفولةِ
حتّى أشاركْ
صِغَارَ العصافيرِ
لعشِّ انتظاركْ.

❖ ❖ ❖ ❖

سلِّم على بيتنا يا غريبُ .

فناجينُ
قهوتنا لا تزال على حالها. هل تَشُمُّ
أَصابعَنَا فوقها؟ هل تقول لبنتك ذاتِ
الجديلةِ والحاجبينِ الكثيفينِ إِنَّ لها
صاحباً غائباً،
يتمنَّى زيارتَها، لا لشيْءٍ..
ولكنْ ليدخل مِرْآتَها ويرى سِرَّهُ:
كيف كانت تُتَابعُ من بعده عُمْرَهُ
بدلاً منه؟ سلِّمْ عليها
إذا اتَّسَعَ الوقتُ.../

هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن يقُالَ له، كان يسمعُهُ جيِّداً
جَيِّداً،
و يُخبِّئُهُ في سُعَالٍ سريعٍ،

و يُلْقى به جانباً، ثم تلمَعُ
أزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يَبْتَعِدْ...

شارِعٌ واضحٌ
وبنتْ
خرجتْ تُشْعل القَمَرْ
وبلادٌ بعيدةٌ
وبلادُ بلا أَثرْ...

حُلُمٌ مالحٌ
وصوتْ
يَحْفُرُ الخصرَ في الحجرْ
اِذهبي يا حبيبتي
فوق رمشي..أو الوَتَرْ
واقتربنا من النَهَرْ
انتهتْ رحلةُ الغَجَرْ

وتعبنا من السَفَرْ

شارعٌ واضحُ
وبنتْ
خرجتْ تُلصِقُ الصوَرْ
فوق جدران جُثَّتي
وخيامي بعيدةٌ
وخيامٌ بلا أثَرْ...

❖ ❖ ❖

من قصيدة مديح الظل العالي

وأنا التَوازُنُ بين ما يجبُ؟
كُنَّا هناكَ. ومن هنا ستهاجر العَرَبُ
لعقيدةٍ أُخرى. وتغتربُ
قَصَبُ هياكلنا
وعروشنا قَصَبُ
في كُلِّ مئذَنةٍ
حاوٍ، ومغتصبٌ
يدعو لأندلس
إنّ حُوصرتْ حَلَبُ.

وأنا التوازُنُ بين مَنْ جاءوا ومن ذهبوا
وأنا التوازُنُ بين من سَلَبُوا ومَنْ سُلِبوا
وأنا التوازُنُ بين من صَمَدُوا ومَنْ هربوا
وأَنا التوازُنُ بين ما يَجِبُ:
يجب الذهاب إلى اليسارْ

يجبُ التوغُّلُ في اليمينْ
يجبُ التمترُس في الوسطْ
يجبُ الدفاعُ عن الغلطْ
يجبُ التشكُّك بالمسارْ

يجبُ الخروجُ من اليقينْ
يجبُ الذي يجبُ
يجبُ انهيارُ الأنظمهْ
يجبُ انتظارُ المحكمهْ
.. وأنا أُحبك، سوف أَحتاج الحقيقةَ عندما أَحتاج تصليح الخرائط والخططْ
أَحتاجُ ما يجبُ
يجبُ الذي يجبُ
أَدعو لأندلسٍ إن حوصرتْ حلبُ

القصيدة طويلة بحجم كتاب. وقد كتبها بعد حصار بيروت وألقاها أول مرة في دمشق عام ١٩٨٣.

❖ ❖ ❖

من « حالة حصار »

عاش الشاعر تجربة الحصار الأخرى هذه المرة في" رام الله" عندما أعادت إسرائيل احتلال الضفة الغربية.

....

هنا عند مُنْحدرات التلالِ، أمامَ الغروبِ
وفُوَّهَةِ الوقتِ،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِّ
نفعلُ ما يفْعَلُ السُجناءُ،
وما يفعلُ العاطلون عن العَمَل:
نُرَبِّي الأملْ.

....

في الحصار، تكون الحياةُ هي الوقتُ
بين تذكّرِ أولّها

ونسيانِ آخرها..

....

الحياةُ

الحياةُ بكاملها،

الحياة بِنُقصانَها،

تستضيفُ نجوماً مُجاورةً

لا زمانَ لها..

وغيوماً مُهاجرةً

لا مكان لها.

والحياةُ هنا

تتساءل:

كيف نعيد إليها الحياة

....

هنا، عند مرتفعاتِ الدخانِ، على درجِ البيتِ

لا وقتَ للوقتْ،

نفعلُ ما يفعلُ الصاعدونَ إلى الله:

ننسى الألم.

....

الألم

هو: أن لا تعلّقَ سيدةُ البيتِ حبلَ الغسيلِ

صباحاً، وأن تكتفي بنظافةِ هذا العلمْ

....

أيها الواقفون على العتبات ادخلوا،

واشربوا معنا القهوةَ العربيِّةَ

[قد تشعرون بأنكمُ بشرٌ مثلنا]

أيها الواقفون على عتباتِ البيوتِ،

اخرجوا من صباحاتنا،

نطمئنُ إلى أنِّنا

بشرٌ مثلكمْ.

....

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،

بيضاءَ، بيضاءَ. تغسلُ خدِّ السماء

بأجنحةٍ حُرِّةٍ، تستعيدُ البهاءَ وملكيِّة
الجوِّ واللهوِ. أعلى وأعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، ليتَ السماءَ
حقيقيةٌ[قال لي رجلٌ عابرٌ بين قنبلتيْن] .

....

نُحبُّ الحياةَ غداً
عندما يصل الغدُ سوف نحبُّ الحياة
كما هي، عاديَّةً ماكرةْ
رمادَيةً أو مُلَوَّنةً،
لا قيامةَ فيها ولا آخِرَةْ.
وإن كان لا بُدَّ من فَرَحٍ
فليكُنْ
خفيفاً على القلب والخاصِرَةْ
فلا يُلْدغُ المُؤْمِنُ المتمرِّنُ
مِنْ فَرَحٍ مرتين!

....

[إلى قاتلٍ :] لو تأمَّلْتَ وجَه الضحيّةْ
و فكَّرت، كُنْتَ تذكَّرْتَ أُمَّكَ في غُرْفَةِ
الغازِ، كُنْتَ تحرَّرتَ من حكمة البندقيّةْ
وغيَّرتَ رأيْكَ: ما هكذا تُستَعَادُ الهُويَّةْ!

....

سأصرخُ في عُزلتي،
لا لكي أوقظَ النائمين.
ولكنْ لتُوقِظَني صرختي
من خيالي السجينْ!

❖ ❖ ❖

الجميلات هن الجميلات

ألجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الجمـــــيلاتُ

[نَقْشُ الكمنجاتِ في الخاصــرهْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الـــــضعيفاتُ

[عـــرشٌ طفيـــفٌ بـــلا ذاكـــرهْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ القويّـــــاتُ

[يـــأسٌ يُـــضيءُ و لا يحتـــرقْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الأميـــــراتُ

[ربَّـــــاتُ وَحْـــــيٍ قَلِـــــقْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ القريبـــــاتُ

[جـــاراتُ قـــوسِ قُـــزَحْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ البعيـــــداتُ

[مِثْـــلَ أغـــاني الفـــرح]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الفقيــــراتُ

[كالوردِ في ســاحةِ المعركــهْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الوحيـــــداتُ

[مثلَ الوصيفاتِ في حضرة الملكــهْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الطـــــويلاتُ

[خــــالاتُ نخــــلِ الــــسماءْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ القـــصيراتُ

[يُـــشْرَبْنَ فـــي كـــأس مـــاءْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الكبيـــــراتُ

[مانجو مُقَشَّرَةٌ ونبيــذٌ مُعَتَّــقْ]

أَلجمـــــيلاتُ هُـــــنَّ الـــصغيراتُ

[وَعْــدُ غــدٍ و بــراعمُ زنبــقْ]

أَلجميلاتُ، كُــلُّ الجمــيلات، أنــتِ

إذا ما اجْتَمَعْنَ ليخْتَرْنَ لي أَنبلَ القاتلات!

❖ ❖ ❖

الآن ... في المنفى

الآن في المنفى... نَعَمْ في البيتِ،
في السِّتين من عُمْرٍ سريعٍ
يُوقدون الشَّمْعَ لَكْ

فافرَحْ، بأقصى ما استطعتَ من الهدوء،
لأنَّ موتاً طائشاً ضَلَّ الطريقَ إليكَ
من فَرْطِ الزّحام... وأَجَّلَكْ

قَمَرٌ فضوليٌّ على الأطلال،
يضحكُ كالغبيّ
فلا تصدِّقْ أنه يدنو لكي يستقبلَكْ

هوَ في وظيفته القديمةِ، مثل آذارَ
الجديدِ...أَعادَ للأشجار أّسماءَ الحنينِ
وأَهملَكْ

فلتحتفلْ مَعْ أصدقائكَ بانكسارِ الكأس.
في الستين لن تَجِدَ الغَدَ الباقي
لتحملَهُ على كَتِفِ النشيد... ويحملَكْ

قُلْ للحياةِ، كما يليقُ بشاعرٍ متمرِّسٍ:
سِيرى ببطءٍ كالإناث الواثقات بسحرهنَّ
وكيدهنَّ. لكلِّ واحدةٍ نداءٌ ما خفيٌ:
هَيْتَ لَكْ / ما أَجملَكْ

سيري ببطءٍ، يا حياةُ، لكي أراك
بكامل النُقْصَان حولي

كم نسيتُكِ في خِضَمّكِ

باحثاً عني وعنكِ

وكلما أدركتُ

سرّاً منك قُلْتِ بقسوةٍ: ما أَجهلَكْ!

قُلْ للغياب: نَقَصْتَني

كي أكملكْ

❖ ❖ ❖

لاعب النرد

مَنْ أنا لأقول لكمْ
ما أقول لكمْ؟
وأنا لم أكُنْ حجراً صَقَلَتْهُ المياهُ
فأصبح وجهاً
ولا قَصَباً ثقَبَتْهُ الرياحُ
فأصبح ناياً...
أنا لاعبُ النَرْدِ،
أربحُ حيناً وأخسرُ حيناً
أنا مثلكمْ
أو أقّلُ قليلاً...
وُلدتُ إلى جانب البئرِ

والشجراتِ الثلاثِ الوحيداتِ كالراهباتْ

وُلدتُ بلا زَفّةٍ و بلا قابلهْ

وسُمِّيتُ باسمي مُصَادَفَةً

وانتميتُ إلى عائلهْ

مصادفَةً،

ووَرِثتُ ملامحَها و الصفاتْ

وأمراضَها:

أولاً - خَلَلاً في شرايينها

وضغطَ دمٍ مرتفعْ

ثانياً - خَجَلاً في مخاطبةِ الأمّ و الأبِ

والجدّةِ والشجرهْ

ثالثاً - أملاً في الشفاءِ من الأنفلونزا

بفنجانِ بابونجٍ ساخنٍ

رابعاً - كَسَلاً في الحديث عن الظبيِ والقبّرهْ

خامساً - مللاً في ليالي الشتاءْ

سادساً - فَشَلاً فادحاً في الغناءْ...

« هـذه قـصيدة وداع ألقيـت في رام الله قبـل رحيلـه بشهرين ».

ملحق صور



محمود درويش

يتوسط ياسر عرفات وجورج حبش



محمود درويش وفدوى طوقان



محمود درويش وأدونيس



أم محمود درويش



الفلسطينيون في وداع محمود درويش



في وداع الشاعر والدته والرئيس محمود عباس



مارسيل خليفة يضع وردة على التابوت



قبر الشاعر محمود درويش

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١١

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

على شاطئ البحر بنتٌ. وللبنتِ أهلٌ. وللأهل بيت.
وللبيت نافذتان وباب.
وفي البحر بارجة تتسلى
بصيد المشاة على شاطئ البحر:
أربعةٌ، خمسةٌ، سبعةٌ
يسقطون على الرمل والبنت تنجو قليلاً
لأن يداً من ضباب
يداً ما إلهيةً أسعفتها، فنادت:
أبي، يا أبي
قم لنرجع، فالبحر ليس لأمثالنا.
لم يجبها أبوها المسجّى على ظله
في مهب الغياب.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م
سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها